

باب التوبة والتعلم

﴿ المكتوب الثالث - من «إميل» الى أمه (*) ﴾

افضاؤه اليها بحبه لقينة من المثلثات - - كيف تعلق قلبه بها - استعلامه سيرتها - تمنيه انقاذها مما هي فيه - طلبه المغفرة من أمه بعد اعترافه لها بالحب .

تحريراً في ١٢ مايو سنة ١٨٦

أني منذ عرفت نفسي ابثك جميع ما يسوءني وما يسرني وما أكره وما أحب وأكاشفك بالخير والشر ولا أكرم عنك شيئاً حتى أني لما كنت بحضرتك ما كنت في حاجة الى البيان لانك كنت تطالعين أفكاري في عيني وتبصرينها تجول على جيني وهذه أول مرة لي في حياتي أسررت فيها سرا . . . وليت شعري أبوح به الي قصب نهر الرين ؟ إذا لتضحك مني كما تضحك من اذني الملك ميداس (١) أم أبته الى القمر ؟ كلا فقد سمع كثيراً من أمثاله أم أكنه في قلبي ؟ إذا الأ نبتني عليه سريري . ما أنا بفاعل شيئاً من ذلك بل أريد أن أودعه صدراً مني على ان الإفشاء به ليس من السهولة بالمقدار الذي كنت أتوهمه فاني ما أنشأت أخط هذه السطور الاولي من مكثوبي حتى ارتعشت يدي وخفق قلبي ولست أخالك الا ساخرة مني ولكن أقل ما أنا واثق به منك انك لن تجدي علي أن صدقتك الخير واذا كان الامر كذلك فلا بد من افشائه وهو اني أحب !

الآن أراك تسأليني من هي التي تحبها وأين رأيتها وكيف عرفتها وفي هذه

(*) معرب من باب تربية الشاب من كتاب أميل القرن التاسع عشر

(١) ميداس بحسب ما جاء في أساطير اليونان هو ملك فريجيا وهي قطر من أقطار آسيا الصغرى اشتهر بواقعتين نذكر إحداهما فقط لاختصاصها بهذا الموضوع وهي ان ابولون بن المشتري حكمه في المناظرة التي قامت بينه وبين بان إله الرعاة في الموسيقى والشعر والفنون وكان بان صديقاً للملك فحكم له فلم يكتف ابولون في الانتقام من ميداس بسنخ جلده حيا بل جعل له بدلاً من أذنيه أذني حمار فغطاهما ميداس بتاج حتى لا يظنوا للناس ولما علم ان حلاته لا بد له من رؤيتهما عاهده على كتمان أمرهما ولكن الحلاق لم يلبث أن ثقل عليه الكتمان فاحترق حنجرته في الأرض بمزل عن الناس وأسر فيها قوله ان للملك ميداس اذني حمار فاتفق بعد حين أن نبت في هذا المكان قصبات كانت كلما هزتها الريح كررت هذا القول

الاسئلة ما يزيدني حيرة وارتباكاً

في مدينة بُّسن ملعب من الطبقة الثانية غير انه مشهور بحسن اختيار القصص التمثيلية فيما يمثل فيه قصة مريم استوارت (١) وقصص شيلار (٢) وقصة غويت عن فوست ومرغريته (٣) وغيرها من القصص الشهيرة والموسيقى والاغاني الموقعة عليه في هذا الملعب يومان أو ثلاثة تحل فيها محل الأدبيات والوقائع التمثيلية وأنا أذهب اليه في بعض الاحيان لسببين أولهما ترويح نفسي من عناء الدرس وثانيها ايلافها أصوات اللغة الالمانية فمن نحو شهر ابتدأت قينة بافيريية (٤) فنية تفني على الموسيقى هناك وكان أول ما غنته قصة النبي من توقيع ماير بير فبلغت من الاجادة في تغنيها الى حد أن جميع طلبة الجامعة كانوا يلهجون بكلماتها آية من الآيات فجزيت معهم في مساق الاعجاب بها ولما انطلقت الى الملعب ورأيتها داخلة في باحة التمثيل كان كلي عيوننا تبصر وأذاننا تسمع وليس صوتها هو الذي اشتد اعجابي به مع كونه من أندى الاصوات وأندرها بل الذي ملأني اعجاباً هوماني تغنيها من الروح بل مافي خلقها من الحسن والانتقان فبت ليلى كله أحلم بها ولا يفارقي طيفها وكنت أراها بين الافلاك السماوية وأسمع أنغام الكواكب الموسيقية فكان فيثاغورس (٥) كان يحب قينة مثلي عند ما كان يحدث تلاميذه عن حسن ألحان النجوم

ولخوفي من انقضاء اعجابي بها فيما يلي من التمثيل عاهدت نفسي على أن لأختلف الى الملعب ليالي تغنيها ولكني ما استطعت أن أوفي بهدي وقد اتفني

(١) مريم استوارت هي بنت يعقوب الخامس ملك ايقوسيا ومريم لورين ولدت سنة ١٥٤٢ م وماتت سنة ١٥٨٧ تزوجت بولي عهد فرنسا (من اول حكم فرنسيس الثاني) وبعد موت زوجها رجعت الى ايقوسيا وتزوجت بهنري درنلي ثم بالكونت بوتويل ثم ثار عليها عاياها فلاذت باليهصابات ملكة انكلترا التي حبسها ١٩ سنة ثم أصرت باعدامها (٢) شيلار شاعر ألماني شهير ولد سنة ١٧٥٩ م ومات سنة ١٨٠٥ ومن أشهر قصصه الحزنة النبهة ووالانثنين وغليوم تل (٣) غويت واسمه جان ولف جانج هو أكبر كاتب ألماني ولد في فرانك فور سيراين سنة ١٧٤٩ م ومات سنة ١٨٣٢ وفوست اسم لشخص خرافي مشهور في حكايات الالمان بأنه تعاهد مع الشيطان (٤) نسبة الى بافير احدى ولايات المانيا (٥) فيثاغورس فيلسوف يوناني ولد في ساموس سنة ٥٦٩ ق م ومات سنة ٤٧٠ ق م بإقام بمصر وبابليون مدة طويلة ثم رجع إلى بلاد اليونان وأسس مدرسة في كروتون وهو أول من قال بالتناسخ وعرف بنظام العالم الحقيقي

عني كثيراً خوف اقلالي من التحمس في حبها بما اكتشفته فيها على توالي الايام من الخصائص الجملة التي لم أكن لاحظتها من قبل ولا بد من الاعتراف لك بأني كنت أجلس من الصف المواجه لباحة التمثيل بحيث أكون مرئياً لها وقد حسب لحظي مرة أو مرتين انه لاقى لحظها ٠٠٠ ولكن ربما كان هذا ضلالاً ومع ان التمثيل كان يمكث أكثر من أربع ساعات كنت دائماً أجده في غاية القصر وأغادر مقعدي في ختامه وقلبي مغمم بما لا يوصف من الاضطراب

خطر في ذهني ان أخاطبها بأبيات من الشعر أنظمها وأرسلها اليها غير ممضأة مني على يد بواب الملعب الهرم ففعلت وكنت أقول في نفسي وقت نظنها ان أقل فائدة لي منها ان تعلم ان واحداً من الناس يجربها ولكنها كانت أبيتاً تارديته وأقر بأنها ما كانت تؤذي نصف ما كنت أضمره لها من عواطف الميل وهذا ما دعاني الى عدم الاعتقاد بصحة ما قيل من أن الشعر من لوازم الحب كما قرأته ذات مرة في بعض الكتب وليس في قدرة أحد ممن عدا المصطفين من الخلق أن يهبر عن كل ما يجده في نفسه ويألتني كنت واحداً من هؤلاء النوابغ الممتازين

كنت من مساعي في القرب من هذه الفتاة واقفاً عند الحد الذي يتتهلك فينبأ أنا في يوم من أيام الآحاد أجوب المنتزه الذي تجتمع فيه نساء المدينة في نحو الساعة الثانية بعد الظهر اذا بها أقبلت آخذة نحو في منحرف فنظر بيالي أولاً ان اتكب هذا المنحرف لسواك لحدى السبل المقاطعة له لانه كان يخيل لي ان سأصفق مما قام بنفسي من ضروب الانفعال والاضطراب غير اني ثبتت ومشيت مشية الجندي الباسل الذاهب الى حومة الوغى فرأيتها في بزة بالغة من الرونق غايته على بساطها وارباه ! كم وددت لو كنت في تلك الساعة قفازها أو زهرة قلنسوتها أو مظلمتها التي تقبها حر الشمس؟ أقول ذلك واني لاعلم انه كان مني قبيحاً ولكن لا ينبغي أن أكنتم عنك شيئاً من مواضع ضعفي

ان في اللحظ خاصة الجذب فاني كنت آنس من لحظي اذا رنوت اليها ان كاله اقرار وتصريح بالحب ولما مر كل منا حذاء صاحبه جرى على وجهي لألاء حسنها كما يجري لمان البرق ولم أجسر على الالتفات خلفي الا بعد ان جاوزتها

بثلاثين خطوة فرأيتها قد بدت عني مهرولة غير اني بصرت في المسافة التي بيني وبينها بشيء أبيض يخفق خفوق جناح الحمامة من صفق الريح اياه فاثريثت في التقاطه فاذا هو مندبيلها قد سقط منها . . . أو تعمدت اسقاطه فعدوت خلفها ودفعته اليها فأظهرت الدهش من ضياعه وتلطفت في اسدائي الشكر على رده وراقبي ان سمعتها تحسن التكلم بالفرنسية فلاح في ذهني أن أعرفها اني صاحب الشعر الذي أرسل اليها ولكني كنت من شدة الاضطراب الذي استولى على نفسي بحيث لم أستطع تحريك شفهي بكلمة ما ولا بد أن تكون حسبتي ابله يزعم العارفون بتركيب الحيوان ومنافع أعضائه ان الذاكرة لا تحفظ الروائح وعذرم في ذلك أنهم لم يحبوا في حياتهم فان مندبيلها وهو قطعة من النسيج الباتسي (١) الرقيق كان يتضوع عن عطر لطيف لن أنساه مادمت حيا . وفي اليوم التالي لهذا اللقاء انطلقت الى ماحول المدينة من الربي الزاهرة فجئيت باقة من ألطف ما وجدته من الزهور البرية وأدلتها على العفاف ولما حان وقت التمثيل خباها في قنصوتي المدرسية وأخذت مجلسي في الملعب ففقت كعادتها بصوت يسمو بسامعيه الى السحاب ولكن كان يخيل الي ان هذه المرأة التي لاقيتها في الطريق أمس ذلك اليوم أكل من قينة وان كان استعدادها للتغنية مثارا للاعجاب وبعدان انتهت من غنائها وانصرفت استمادها جميع السامعين فهطلت حولها باقات الزهر من غرف الملعب والكراسي المقابلة لباحته وأن لي أن ألقى اليها باقبي فاهتمت غاية الاهتمام بأن تبصرني عندا لقائهم تظاهري بالاختفاء خلف جبراني وما أدراك ما فعلته حينئذ؟ لقد أهملت كل ما ألقاه غيري من الازهار النادرة مثل زهر الكاملية (٢) وزهر التين الهندي والورد ذي الأسنه وهدت الى باقبي الحقيرة المؤلفة من أزهار برية فتناولتها وضممتها الى قلبها أفلا ترين في ذلك برهانا على حبها لي ؟

ستقولين لي أنت لا تعرفها وقد تكون مخالفة تمام المخالفة لما تخيلته منها وانه كان ينبغي لك قبل أن تملل نفسك بالاماني والاهام أن تكون على بينة من أخلاقها وكيفية معيشتها فأجيبك أن هذا أيضاً لم يقيني وأقر بأنني لم أقف من

(١) الباتسي نسبة الى باتست وهو أول صانع لهذا النسيج (٢) الكاملية زهرة يابانية جلبها الى أوروبا صرحل ديني اسمه كاملي فسببت اليه

تجري سيرها الا على أخبار لا يزال فيها شيء من القموض ولم يجتمع لدي في هذا الصدد الأقوال في غاية التعارض والتناقض فأنت تعلمين مقدار ما للشبان فيما بينهم من القسوة على النساء ولا سيما المثلثات فقد بلغ الحسد من افساد خلق الانسان الى حد أن جعل من لذاته تمزيق اعراضهن مع ما هن من الملكات التي هي مناط الاستحسان العام ولست بمخف عنك شيئاً مما يقولون فبعضهم ينسب لها من هنات الشباب ما يغير دمي ويشير غضبي وبعضهم يقول انها تعيش مع أمها في حيّ منعزل عن المدينة وقد أراي الطلبة هذه الام تصحبها ليلاً عند خروجها من الملعب فلم أجد بينهما مشابهة ما وان أردت الوقوف على شيء من نعمها فتخيلي امرأة ضخمة من عامة النساء قد ذر شاربها واني لمتألم من تصور ان مثل تلك الزهرة قد نبتت من هذه المدرّة ومهما يكن من وضاعة أصل تلك الجارية فمن الفضل أن تعامل بجميع ما يجب لفتاة مخرصة مثلها من صنوف الرعاية والتكريم

على اننا اذا سلمنا حصول أسوأ ما يتأتى حصوله منها وفرضنا ان سيرتها لم تكن دائماً مرضية أفلا يكون الذنب في ذلك على مهنتها وعلى من يعاشرها من الناس؟ اني أراها بالغة من الظرف والكياسة مبلغاً أستبعد معه أن لا تكون لها نفس زكية وربما لم يتفق لها في حياتها أن تمثل لها الحب الصحيح المطهر للنفس بشراً فاضلاً كريماً. وارباه أي فخر أناله لو أتيح لي أن أمد يدي الى تلك الروح الملكية فأنتاشها من درك الانحطاط الذي هبطت فيه لتعود الى نور الهدى والفضيلة

ها أناذا قد كشفت لك مكنون سري ونجوت بهذا الاعتراف من شديد زجر سريرتي والآن أقع بين يديك راجياً منك غفران خطيئتي . اهـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تأبين الاستاذ الامام

في يوم الجمعة (١٧ جمادى الثانية ١٨ أغسطس) اجتمع خواص الناس من العلماء والادباء والوجهاء من المسلمين وغيرهم عند قبر الاستاذ الامام حكيم الشرق